تنـاص الشعـر الموريتانـي مع الأماكـن المحليـة

محمد تقي الله سيدي القوم
طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

يتنزل هذا المقال الذي نحن بصدد معالجته في سياق التناص في الشعر الموريتاني، موضوع أطروحتنا، وقد جاء ضمن الفصل الأخير منها والذي اخترنا له عنوانا (تناص الشعر الموريتاني مع الموروث الوطني) حيث تطرقنا إلى تناص هذا الشعر مع المقاومة الوطنية للاستعمار ومع قضايا المظلومين والمضطهدين وأخيرا مع الأماكن المحلية، موضوع هذا المقال.

يعتبر المكان في الثقافة البشرية من أهم الأسس التي سكنت رافد الإبداع الشعري للإنسان، وقد تناولت معظم الملاحم الشعرية العالمية موضوع التعلق بالوطن وتمجيده وتثمين كل ما يتعلق به، وليس الوطن في ثقافتنا العربية بمنآى عن هذا التوجه، ذلك أن الأماكن التي ظل العربي يرتادها في تتبعه لمظان الغيث والكلأ والدمن التي بكاها ليست إلا وجها من وجوه التعلق بهذا الوطن والحنين إليه.

ويرى بعض الباحثين أن << الشعرية العربي قامت في الاساس على تقسيم الشعراء الى اغراض متعددة وقد استأثر الوطن (المكان) بنصيب الأسد في هذه الأغراض[1] >>، ذلك أن الوطن في الثقافة العربية ظل له حضور بارز في اغلب أغراض الشعر سواء كان غزلا أو رثاء أو مدحا أو وصفا لطبعية.

وتأسيا على ذلك فهو مرادف للوطن والسكنى والإقامة في هذه الثقافة، وتماهيا مع ذلك فإن الحقل الدلالي المتعلق به << استطاع أن يسيطر على أنماط معرفية متعدد فحتى في علم العروض لم يستطع العرب تجاوز دلالة المكان في تقسيمهم لأنماطه وأقسامه بحيث كانت الخيمة حاضرة ابتداء من السبب والضرب، أما البيت فهو أكبر دليلا على حضور المكان في التراث العربي، ولكي تتضح الدلالة أكثر علينا أن نتأمل قول بن رشيق متحدثا عن علاقة اللفظ للمعنى: ولا خير في بيت لا ساكن له ، فالبيت من هذا المنطلق نستفيد من دلالته المعمارية ومن بعده الفني ليحي لنا في النهاية إلى أنه مكان وسكن >>[2]

---

[1] د الشيخ بن سيدي عبد الله: دراسات في الأدب والثقافة، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، مطبعة المنار، لكصر، نواكشوط. موريتانيا 2015، ص 37

[2] المرجع نفسه والصفحة

وقد اتحل المكان في نفوس الشعراء الموريتانيين مكانة مرموقة باعتباره منسك حبهم وملعب صباهم فتناصوا مع في اشعارهم وصورا تعلقهم به وكفنهم وهيامهم بسكانه وطبيعته، فكانوا لا يمرون بسائحة ولا بارحة تتعلق به إلا تجلى أثرها واضحا في نصوصهم الشعرية مما يشي بأصالة نحيزتهم الشعرية وخصوبة عطائهم العاطفي وسرعة استجابتهم لشتى البواعث والدواعي [1] فشكل بذلك مرجعية ثقافية ومنبعا ثرا لعطائهم الشعري فجاء تناصهم معه ينوء بالكثير من الحمولات العاطفية والفكرية والاشارات والدلالات التي لا يتأتى تفكيك شفراتها الا للقارئ المتمكن والحاذق الفطن المسلح بآليات القراءة الواعية والثقافة العالمة ، ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك ما نلمسه في استنطاق نصوص بعض الشعراء الموريتانيين التالية أسمائهم :

1 ـ الشيخ سيديا[2]:

ومن تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قول الشاعر[3]:

ألا عم صباحا يا أبا تلميتـــا وحز من نجاح ما أردت وشيتـا

وساق إليك الله كل فضيلـــة وجاد بأرضيك الجدى فحظيتـا

وحفت بك الخيرات من كل وجهة ونادى منادي الفضل نحوك هيتا

ونلاحظ أن تناص الشاعر مع موطنه يحمل في طياته حبا جارفا وتعلقا كبيرا حيث يلهج بالدعاء لهذه البقعة من الأرض لفرط تعلقه بها واصطباغ عواطفه وتلونها بالوفاء لها حتى لكأنه يرى فيها أمه التي أرضعته لبانها فكانت حقيقة بالدعاء لها للبر بها وبأهلها، فالمكان في هذا السياق قد جاء رمزا متناميا في النص برمته يهيمن على حركاته من بينته الافتتاحية حتى بنيته الختامية، يتمفصل في كل دواله فكريا ونحويا وأدائيا[4] مما يشي بمتانة الروابط التي تشده إليه وعمق تعلقه به واستحضاره وتمثله لها.

---

[1] إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ سيديا: الموروث الثقافي والأدبي للشيخ سيديا، دار الكتب العلمية، أعمال ندوة بوتليمت 17-19، بيروت لبان، 2006، ص 121.

[3] الموروث الثقافي والأدبي م س ص 107

[4] عصام حفظ الله حسين واصل: التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر، دار غيداء للنشر والتوزيع الجزائر، ط 1، الحائر، 1431، ص 153

2 ـ الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سديا[1]:

ومن مظاهر تناص الشعر الموريتاني مع الاماكن المحلية وارتباطه بها قول الشاعر مخاطبا أحد المناهل الرعوية وهي بئر عربها باسم (ميمونة السعدى)[2]:

لعمرك ما ترتاب ميمونة السعدى بأنا تركنا السعي في أمرها عمدا
سوى أننا كنا عبيد مشيئة ولا عار في أن يعجز السيد العبدا
فليس علينا أن يساعدنا القضا ولكن علينا أننا نبذل الجهدا
ألم ترى أنا قد رعينا عهودها على حين لا يرعى سوانا لها عهدا
ويظعن عنها الناس حال انتجاعهم ولم نتجع برقا يلوح ولا رعدا

حبسنا عليها وهي جدب سوامنا فما صدنا السعدان عنها ولا صدا

ولا يخفى أن تناص الشاعر عنا مع المكان يلفه غشاء من الحزن والألم وإن غطى على ذلك بحسن الرجاء والثقة بالله، فالشعور بالحنين والغربة والذكريات مع المكان كلها أمور تعمق تيمة الحزن لدى الشاعر، ذلك أن الاعمال الأدبية كما يرى بور خيس لا تشكل ذكريات بسيطة بل إنها تقيد كتابة ذكرياتها وتأثر في السابقين والاسلاف في حالة التناص مع الموروث الجمعي الذي يصبح ملكا للجميع.[3]

وفي سياق غير بعيد يتناص الشاعر مع مكان آخر حيث نجده يعتذر عن اغترابه عن معاهد صباه وديار أنسه ويؤكد أن ذلك لم يكن بمحض اختياره وإنما اضطرته إليه الظروف اضطرارا فيقول: [4]

طال في أربع القرار قراري ليت شعري مالي ومالقرار
طال مكثي وإنما طال فيها باختيار المليك لا باختياري
لم أكن مزمع القدوم إليها بل رمتني لها يد الأقدار
ليت شعري والعبد ذو اجبار وهو يبدو في قالب المختار
هل يسنى لنا سجيس الليالي عوض من عودة الى اوكاري
تلك أرضي التي أحب أهوى وهي حقا منازل الأحرار

---

[1] سبق التعريف به

[2] الموروث الثقافي والأدبي، م س، ص 125

[3] حصة البادي: التناص في الشعر العربي الحديث (البرغوثي نموذجا)، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، ط 1، الأردن، 2008، ص 166

[4] الموروث الثقافي والادبي، م س، ص 127

واذا عدنا إلى النص نجد أن تناص الشاعر مع المكان يشي بعمق الروابط التي تربطه به حتى ليمكن القول انه يشكل حاضنته الاجتماعية والثقافية وتاسيسا على ذلك نستسيغ القول انه بث في ملفوظه الشعري كوى من الشوق الى هذا المكان (الوطن) ناهيك عن نار الغربة التي تحرقه، ولذلك قد ظلت تيمة الحزن والشجن يهيمنان على جميع مفاصل النص وتتشظيان في جسده، وبذلك فقد استطاع الشاعر في تناصه وتعالقه مع المكان (أوكار) أن يعبر عن أدق خلجات تجربته وأن يكسب هذه الخلجات وجودا نابضا، كما استطاع ان يعبر عن غربته المكانية وامانيه بالعودة الى ربوع بلاده التي يسميها ببلاد الاحرار، وقد بلغ ولد الشيخ سديا في الاماكن المحلية والتحامه به وتغلغلها في اعماقه ان لجأ إلى مقارنة علاقته به بعلاقة الشعراء القدماء ببلادهم المذكورة في اشعارهم حيث يقول في هذا السياق:[1]

ولذات اليمن بلغ انني ان تكن سلمى فاني بعض طي

فتناص الشاعر مع المكان في هذا السياق يحيل مرجعيا على حياة منشئه كما يقول جمال ولد الحسن، ويرى بعض الباحثين أن التناص مع المواطن بأعلامها مرتبط غرضيا مع الغزل مقدمة لغيره أو غرضا مسقلا حيث ان الغزل عند كثير من الشعراء ظل مناسبة للتناص مع اسماء المواطن والحبيبات، وان كان ذلك بطرق تختلف من شاعر لشاعر.

3 ـ محمد بن الطلبه اليعقوبي:

ومن تناص ولد الطلبه مع المكان امتياحه من ذكريات صباه التي عرف بها الوان المسرة والسعادة وانطلاقا من هذا التناص والتمثل والاستحضار تتفاوت قيمة هذه السعادة حسب المكان المتناص مثل ما نقرأ في قوله[2]:

وتشهد أيام الصبا عند ربها بأن ليس فيها مثل عصر الذريع

فالتناص مع المكان مثقل بنوع من الحنين الضمني والحسرة على ذلك الماضي المشرق الذي ما تزال ذاكرة المكان (الذريع) تحتفظ به، ولعل تلك الايام التي لم تدم هي التي عاناها ولد الطلبه وأبنها بقوله:

فلو كنت أبكي لشيء مضى بكيت على دهرها الزائل

---

[1] الشعر الشينقيطي في القرن الثالث عشر، ص 227

[2] دراسات في الشعر الموريتاني ملامح الابداع في شعر محمد بن الطلبه اليعقوبي الشنقيطي، انجاز مجموعة من الباحثين بإشراف دار الرضوان نواكشوط موريتانيا، 2013، ص 16

ومن تناص ولد الطلبه مع الأماكن المحلية وارتباطه بها مساءلته للمغاني حيث وجه استفساره إلى هضبة الخيل قائلا:

هضبة الخيل أين حي حلال عمروا منك كل مغنى خـراب

أين حي غنوا بسبحك دهرا محسني حرص رفعه الأحساب

ونستيطع القول إن المكان الذي تناص الشاعر معه (**هضبة الخيل**) يكتنز من ذكريات الشاعر وهمومه وشجونه ما يجعله خلفية ثقافية تشكل مرجعيته النصية التي ترفد كثيرا من نصوصه الشعرية كما نلمس في تناصه مع (**ترارين وآمله**) حيث يقول:[1]

بترارين مربع للربـاب حسن لو ابان نطق الجواب

وبآمله حوله ربع سلمى صيرته اليالي رغم الكتاب

ونستشف من تناص ولد الطلبه مع الأماكن المحلية وخاصة هذين المكانين انه يحمل في ثناياه بعض المآخذ على الزمن مثل تغيير معالم امكنة محددة اذ أن طمس معالمها يحس في نفسه باعتباره تشكل مرجعيته الاجتماعية وخلفيته الفكرية التي رفدت كثيرا من نصوصه الشعرية فجاءت موشاة بذكرياته الجميلة ومواقفه في طفولته وشباب، ولا غرابة في ذلك أذا علمنا أن الشاعر كان وفيا لهذه الأمكنة، فهو الشاعر البدوي المحمل بتراث الاقدمين وقد خضع لسياقه الثقافي والبيئي وجعل من المكان ثابتا مألوفا في اكثر من قصيدة له ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك قوله:

حي من ساحة المبيدع دورا جنبة الريع قد دثـرن دثـورا

قد أضر البلى بها غير لوح من رسوم تخالهـن زبـورا

وبقايا من ارمدا تتقيهـا خالدات الصفا الصبا والدبورا

حبذا هن من معاهد لـولا أن للدهر عثـرة وحبـورا

وبالرجوع إلى النص نجد أن تناص الشاعر مع المكان (**المبيدع**) قد ولد لحظة من لحظات مواجهته والوقوف عليه مما أوجد لديه احساسا موجعا باللحظة الآنية وهي لحظة << تبدو محملة بالفناء والخراب والانهزام إذ لا يكاد الشاعر يتخلص منها إلا باستدعاء الماضي، فالاعتبار بما آل إليه المكان يحمل الشاعر من الزمن الآني عبر الاستذكار إلى زمن بهي يمثل حيتة المكان (المتناص معه) الحافلة وزهو الشاعر بأيامها>>.

---

[1] دراسات في الشعر الموريتاني، ملامح الإبداع في شعر محمد بن الطلبه اليعقوبي الشنقيطي، إنجاز مجموعة من الباحثين بإشراف دار الرضوان، انواكشوط، موريتانيا 2013

ومن تناص الشاعر مع الأماكن المحلية قوله كذلك:

طال ليلي بساحة الكرب حتى كدت أقضي الحياة قبل الصباح

وجلي أن التناص مع المكان هنا ينوء بحالة الشاعر النفسية حيث قرن امتداد ليله بساحة الكرب و هي تعريب (**لكرب**) مما أكسب اللفظة الدارجة دلالة معجمية أسهمت في التعبير عن حالته النفسية التي تعتبر لصيقة بالمكان المتناص معه وكان الشعراء الموريتانيون في تناصهم مع الأماكن المحلية <<كثيرا ما يسوقون الأعلام غير العربية بألفاظها مع ملاءمتها والسياق التركيبي العربي سواء بالحاق حركات الاعراب بها أو ادخال أداة التعريف عليها، ويكثر هذا الأسلوب عند ابن الطلبه خاصة فهو لا يكاد يعمل شيئا في تعريب اسماء مواضعه بل غالبا ما يذكرها كما هي حسانية أو صنهاجية فتنشأ على ذلك مفارقة غريبة بين نص شعري أحكم نسجه على المنوال الجاهلي معجما وبلاغة وأغراضا وبين أعلام عجمية مستغفلة ومثال ذلك قوله>>:

سرى يخبط الظلماء من بطن تيرس إلي لدى ابريبيـــر لم يتعـــرج

وذكره أظعـــــان تربع باللـــوى لوى الموج فالخبتين من نعق دوكج

إلى البير فالحـــواء فالفج فالصوى صوى تشل فالأجواد فالسفح من اج

وقد يكون التحويل التركيبي في أسماء هذه الأماكن يفضي إلى تحويل دلالي يبين عن حدة ارتباط الشاعر بها وانصهاره فيها وتوقه إلى أيام الحب والصبا التي عاشها في كنفها فهو يندغم لأنها تمثل بالسبة له تيمة اللهو وتيمة التحول والشوق والحنين إلى الماضي، ولذلك يمكن القول إن التناص مع هذه الاماكن يثير ذكرياته ويستفز أشجانه وأشواقه القابعة في الغرف الخلفية من زوايا عقله الباطن.

4-محمد بن محمدي

ومن تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قول الشاعر[1]:

أرض العقيلات يا برق الحيا وعلى أحيائها لعيون الشائميـــــن نـح

ولا ترق دونها في الأرض ملأ فم من ساريات روايا ودقك الدلـــح

حول المليحة خيم واغدون ورح ثم أغدون ورح ثم اغدون ورح

حتى إذا ما عمت السقيا مسارحهـا فاسق المسارح من برين واسترح

فتناص الشاعر مع المكان يشي بعمق الأواصر التي تشده إليه حتى إنه يضن بالسقيا لغيره من الأماكن الأخرى، فهو بالنسبة له هو المبتغى والموئل والمرجع الذي يجد فيه ذاته، فالخصب والنماء

---

[1] أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الخانجي، القاهرة 1409 – 1989، مؤسسة منير، موريتانيا، ص 66

والتناسل والتجديد والبعث والاستمرارية وغيرها من المعاني التي يكتنزها المطر كلها أمور يضن بها الشاعر على غير المكان، الوطن، الذي يقبع حبه في ذاكرته ويشكل جزءا من وجوده وكينونته.

5-محمد بن حنبل

ومن تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن قول الشاعر[1]:

لا يظن الظنون أن مقامي بالينيبع لاطلاب العلـــوم

بل لغربية تهب فاشفـــي سقم القلب من حشاي الكليم

حببت كل شقروي إلينا من حميم لها وغير حميم

ونلمح أن التناص مع المكان يحمل في ثناياه نوعا من بواعث الشوق والغرام، ولعل ذلك ما أشار إليه أبو علي المرزوقي في كتابه: << الأزمنة والأمكنة >> بقوله: << فترى ذكر المكان في جميع ما يندرجون فيه شقيق أرواحهم ومشرع الروح لأفئدتهم ومستمد ذاكرتهم مشتكى لأحزانهم به تكشف البلوى تو يستنزل المطر، فليسوا بشيء من حظوظهم أقنع منهم باجتماع الوطن والمطر[2]>>.

لذلك شكل مرجعية تناصية ومنبعا ثرا للواعج الشوق والغرام عند الشاعر الذي لم يقم به للتعلم وإنما لارتباطه بتجربته العاطفية.

6-سيد أحمد بن الصبار المجلسي:

ومن تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قول الشاعر:

لئن طال ليلي وصبري وهن بحيي ادردن وادكبهـن

لقد مر دهـــر بانياشـــون تمر الليالي كأن لا زمن

إن تناص الشاعر مع المكان << لا يخلو من صدمة يتسرب الزمان من خلالها عبر الذكرى في ومضات آنية واسترجاعية يتحسس الشاعر من خلالها تحولات الزمن>>.

حيث شكل المكان ذات يوم ماضيا شبابيا ومراتع صبا وعيشا رغدا إلا أن سرعة انقضاء الزمن ولدت لدى الشاعر نوعا من الأسى والتحسر على ما عاش فيه من ذكريات جميلة شكلت فيما بعد مجالا رحبا للتناص مع المكان.

7-عبد الله بن سيد محمود الحاجي

ومن مظاهر تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قوله:

---

[1] أحمد جمال بن الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر (مساهمة في وصف الأساليب، في ق 13هـ)، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط 1، 1424هـ/ 1995م، ص: 352

[2] المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، مجلس دائرة المعارف، ط1، حيدر-آباد، سنة 1332هـ، ص 33

حبـــذا أربع لدى اتفيتـنات بعد لأي عرفتها مقفـــرات

ظلت أذرو الدموع فيها وقلت لربوع عرفتهـــا عبراتي

وخشيت احتراق الاربـع لولا ديم الدمع من لظى زفراتـي

فعلى الاربع المحيلة منـــي وعلى الحي أطيب التحياتي

ويتجلى أن تناص الشاعر مع المكان يشي بارتباطه العميق به وبذكراه الماثلة أمامه في الزمن ولذلك فإن المكان << الذي يبدو في اللحظة الأولى هامدا ساكنا تحوله لحظة المعاينة إلى نبض عامر بالشاعر وبصحبه وذكرياته وتصبح الوقفة المحدودة زمنا نفسيا ممتدا ومتجذرا في وعي الشاعر ولا وعيه >>. ولذلك يستدعي منه توقفا عنده وحديثا عنه لارتباطه بمواقف أثيرة عنده.

1- **بوفمين المجلسي واسمه المصطفى بن أبي محمد**

2- ولعل من أظهر تناص الشعراء الموريتانيين مع الأماكن المحلية قوله[1]:

أحن إلى ترقى ووادي أضائها وهل لي إلى وادي الأضاء سبيل

وهل قد أرى انياشوان وقد بدا من أهلي مقيم حولـــه ونزيل

بوع بتنيافيله منهـم محيلـة ر حنيـني إلى أيامهن طويـل[2]

وتجمع بالحقفين منهم كواعبا وفتيان صدق بكرة وأصيـل

فتناص الشاعر مع هذه الأمكنة يكتنز شحنات من الشوق والحنين، حيث تنثال الذكريات بإحساسه الموجع بالحنين إلى هذه المرابع، وهو احساس لا يكاد يتخلص منه مؤقتا إلا باستدعاء الماضي، فالشوق إلى الأمكنة والالتحام بها والتناص معها يحمل الشاعر من الزمن الآني عبر الاستذكار إلى زمن يمثل حياة المكان الحافلة وزهو الشاعر بأيامها.

9-**المجدد المجلسي واسمه المصطفى**

ولعل من مظاهر تناص الشعر الموريتاني مع الأمكان المحلية قوله[3]:

من ربعة الحلاب فالحضرات وقفت وعيني جمة العبرات

أسائل عن نعمى وأين تيممت وماذا سؤال الأربع القفرات

ويأتي تناص الشاعر مع المكان في هذا السياق مثقلا بالصراع والتنازع بين التوق إلى المكان وما ينوء به من ذكريات وبين القلق والحيرة حيال وجهة المحبوبة وتبقى الذات الشاعرة في تناصها مع

---

[1] د محمد المختار بن أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ص 88

[2] ترقى وانياشون وانتيافيل كلها أماكن من أرض الشاعر

[3] الشعر والشعراء في موريتانيا، م س، ص 88

المكان تعيش تنازعا بين الحياة والاندثار وبين الماضي والحاضر، وفي لحظة التأزم هذه تحاول استعادة توازنها عبر حيل فنية مختلفة، فالمكان الذي شكل في ماضي الأيام جزءا من ذاكرة الشاعر ومن ذاته يطالعه فإذا به قد اقفرت مرابعه تبدلت معالمه وارتحل عنه ساكنوه فيصير في حيرة من أمره ولا يجد إلا الأسئلة التائهة التي تنم عن الشعور بالحسرة والضياع والغربة والنفسية.

وختاما لهذا المبحث نستطيع القول إن ما أوردناه من تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية (الوطن) يعدو مثالا بسيطا على هذا المشغل، ذلك أن الإحاطة بتناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية لا يمكن إنجازها ضمن بحث محدد نظرا << لغزارة المادة الشعرية وتوزعها بين المفهومين الروحي والمادي للوطن>>[1] فنصوص الشعر الموريتاني التي تناص فيها الشعراء مع الأماكن المحلية (الوطن) تذكرا وتمجيدا واستحضارا لذكريات الطفولة وتعلقا بالمحبوبة تعد بآلاف، وتأسيسا على ذلك لا نجد غضاضة في الاعتراف بأن ما اوردناه في هذا المبحث لا يعدو كونه ورقة من هذه الغابة الكثيفة التي لا حدود لها.

وخلاصة القول في هذا المقام أن الشاعر الموريتاني قد برهن من خلال تناصه مع هذه الأماكن على ارتباطه الحميم بها حيث تغنى بالآبار والمنتجعات وشدته ديار الحبيبة ومراتع الصبا، فكان للشعر دور كبير في تخليد الأماكن والتغني بما آلت إليه من تحولات وانطماس معالم[2].

---

[1] دراسات في الأدب والثقافة، م س، ص 43

[2] الشعر الموريتاني الحديث، م س، ص 30